بين حبّ الحسين... ومعرفة الحسين

رائـد شـرف الديـن

ذكرى عاشوراء ٢٠١٢

قاعة الإمام زين العابدين (ع)

١٧ تشرين الثاني ٢٠١٢| العبّاسـية - لبنان

باسمه تعالى

السلام على الأعزة المتمسكين بحبل أهل البيت عليهم السلام.

للمرّة الثانية، يشرفني الأخ الفاضل الحاج أحمد عجمي بدعوة كريمة، فأحظى ببركة الوقوف أمامكم في فرصة جديدة لأعمّق فهمي لمآثر الحسين بن علي (عليهما السلام)، ولأكسب أجر المحاولة إذ اجتهد في وضع ذلك الفهم في سياق المكان والزمان الذي نحن فيه. وهنا تكمن العِبرة الحقيقية في استشهاد الحسين، فنحن لا نجتمع لأن الحسين بحاجة لمن يحيي ذكرى شهادته؛ إنما استشهد الحسين لينتج مردوداً على حياتك وحياتي وحياة كلّ الناس.

أسأل الله بدايةً أن يوفقني في استخدام المفردات الجامعة والتركيز على مفاهيم الحق والإخاء والعدل، والتي لأجلها استشهد الحسين ومن معه. فإذا كان أتباع الحسين اليوم جلّهم من الشيعة، فإن الحسين لم يقصد الشيعة وحسب إذ دعا إلى العدل. هي دعوة كونية إنسانية رسالية. وعليه، فإن على هؤلاء الأتباع مسؤولية مضاعفة في مدّ جسور التواصل والمحبة تجاه الآخرين، وفاءً للحسين وعملاً بالدوافع والقيم والغايات التي في سبيلها استشهد.

وهذا المطلب ملحّ كما لم يكن يوما... ، وهذه الذكرى الجليلة مناسبةٌ ملهمة للتأمل والتبصر وتصويب المسار ...

سمعت بالأمس أن أحدهم ينادي بإزالة أهرامات مصر بحجة أنها رموز وتماثيل وثنية. قبل ذلك، تم في أفغانستان تدمير منحوتات وآثار تاريخية عمرها آلاف السنين، ولا مجال لأن تقدّر بثمن مالي أو مادّي. أدركت هول الانحراف في البوصلة إذ أنّه -هنا أو هناك وفي كلّ مكان- ما يزال التراث المعماري/ الأثري جسر تواصل بين الثقافات، ومصدر رزق لملايين البشر.

استوقفني الخبر وما يستدرجه من مفارقات، ؛ ثمّ توالت الخواطر والأسئلة:

- هل انتقلت المعركة من ميدان مكافحة الفقر والتخلف والمرض، إلى شنّ حرب ضروس على الأضرحة والنواميس؟
- أننشغل بما يتردّد في الفضاء عمّا يحدث على الأرض؟
- أنفسد الحاضر (والمستقبل) في محاولتنا الانتقام لمظالم الماضي؟
- أنحجب حق الوجود عن كلّ من يخالفنا الرأي أو اللون أو الهيئة؟
- كيف انحرفت قيم التنوّع والتعددية إلى تفريخ للمجموعات والعصابات مع ما يلازمها من منابر التحريض والذم بالآخر؟
- أننصرف إلى وعظ الناس بدل السهر على خدمتهم وحفظ كراماتهم؟

تنشغل البلدان المنضوية لنادي "الربيع العربي" في تثبيت مرجعية الشريعة الإسلامية في دساتيرها (هل هناك تعريف موحّد للشريعة؟). البعض يفلح في استيلاد النص الدستوري، إنما بعد خسارة كلّ شيء: التماسك المجتمعي، الوحدة الوطنية، الميزة الحضارية، ومقومات الرأسمال المجتعمي والهوية الوطنية.

بدأت حركات الإسلام السياسي تلك، تتنقل من حق التمثيل الحصري للدين إلى حق احتكار الدنيا ومن عليها ومن فيها . ويجري تطويع النصوص والحكايات لتبدو كأنها برنامج سياسي ومعجم سلطوي متكامل. بينما هم يغضون الطرف عن آيات بيّنات مثل "إنا خلقناكم شعوب وقبائل لتعارفوا"، ويرفضون مجرد البحث في مفاعيل هذه الآيات على حياتنا اليومية. لكل شعوباً خصوصيته وما يلائمه من نظم وقواعد سياسية؛ والآيات البينات هي مناهج لتحقيق العدالة ولضمان الحقوق للأفراد كما للجماعات على تنوعها.
"إن الإمام الحسين (ع) القائد ... البقية الباقية من الإنسان الإلهي، الذي تربى في مدرسة دين الله، يدرك أن الطغيان والفساد يلتهمان الجميع، وان الخوف والطمع يمنعان توجيه أي نصيحة أو اعتراض، وإن مخافة الله والضمير النقي يتقلصان في المجتمع حتى أصبح

الإيمان والخلق مهددان بالفناء ..." هكذا وصّف الإمام السيد موسى الصدر وضعَ السبعينيات من القرن الماضي، وكان ذلك في حديث عاشورائي. وهذه الأيام- وبعد ثلث قرن ونيّف- نعيش ذات الذكرى، نعيش الخوف الكبير من الخطر الذي يفتك بالخلق والخليقة في معظم ديار الإسلام.

استشهدُ بالإمام الصدر لينقلني عبر رؤيته للفضاء الواسع إلى المساحات المحدودة حيث إمكانية الحركة والفعل. فالملاحظ أن الهواء الفاسد، هذه الآونة، يتسلل إلى كلّ الغرف والمطارح، وتستعر اللهجات واللكنات الفتنوية من هنا وهناك. ومع الوقت، تتفاقم أساليب الاستثارة وأدوات التنكيل في غير مكان. وكي يستقيم المعنى، وتقديراً للموقف الحسيني، ولأنني إنسان يرغب العيش في هذا البلد بمن فيه وبما فيه، أودّ المجاهرة بموقف واضح ومحدد يتصل بالمجالس الحسينية وتأثيرها على علاقة الشيعة بالسنّة في لبنان تحديداً، وامتداداً إلى بلاد الأمة الإسلامية.

لناحية الشكل: عرف الشيعة عبر تاريخهم حقباً طويلة من الاضطهاد، ووصل الأمر إلى تداعي أفراد قلائل للاجتماع تخفيا في أقبية موصدة، وفي أعماق أزقة يراقبها الصبية رصداً لأي مباغتة سلطوية. بالمقابل، نشهد حالياً مجالس صاخبة تفوح منها الخرافات والأحاجي. ينبري خطباؤها إلى شق الفضاء صراخاً ونحيباً، وتأتي النتيجة لا تشبه شيئاً إلاّ الضجيج، ولا تحدث فرقاً إلا ترسيخ الطقس عند الأتباع واستثارة الريبة والحنق عند كلّ من عداهم؛

لناحية المدى: لا يظنن أحد أن الحسين قضى - وثلّة الرجال- لأنه تواق للموت، بل لأنه عاشقٌ لكرامة الحياة وعزّة الموقف وحرّية الاختيار. وإذا كنا نزعم أننا حسينيو النفس والنفَس، فالبديهي أن ندرك عالمية تلك القيّم، وأن نستشعر المدى الإنساني الرحب الذي ينفسح أمام رسالية الموقف. عليه، يكون معيار الولاء والوفاء في مدى قدرتنا على النفاذ إلى وجدان الآخر المختلف، وفي مدى قدرتنا على إحداث اختراق في قوالبه وتصوراته عنّا وعن الحسين وعن الله. أمّا أن ننتشي بإزعاج الآخر، أو نمعن في استثارته... فهذا طعن للحسين وتهشيم لصورته البالغة البهاء.

لناحية المضمون: قال المهاتما غاندي "تعلمت من الحسين كيف أكون مظلوماً فانتصر". ويبدو لي أن المهاتما كان من القلائل الذين وصلتهم رسالة الحسين فتلقفوها. لقد قال الحسين عشية الموقعة: "مثلي لا يبايع مثله"، ولم يقل أنا لا أبايع مثله كما لم يقل مثلي لا يبايعه. فالموقف أكبر من أي شخصانية وأنزه من أي ضغينة؛ وهو بهذا يصك نموذجاً عابراً للمناطق والحدود والأشخاص والآفاق. بهذا نفهم كيف تحولّت معركة الساعات الأربع إلى صراع مفتوح ضد الباطل يستعر أواره كلما اشتدّ الظلم طوال ١٤ قرناً. وإلى سلامة الأسباب، هناك نزاهة المسار إذ أنّه لم يستعجل القتال، بل استنفذ سبل المنطق والحوار والتفاوض.

وإذ أيقن حتمية المواجهة، ذرف عبرة الإشفاق على قاتليه ليؤكد لنا بأن الإنسان للإنسان باب رحمة، ولا يجوز بأي حال أن يتحوّل إلى فوهة انتقام أو خندق قطيعة.

"إنما خرجت طلباً للإصلاح في أمة جدّي": مطلب الحق ومطلب العدالة بين الناس هو الدافع، وهو المعيار؛ وهي مطالب تتصل بحياة الناس ومعاشهم وتعاملاتهم؛ إنها- بتعابير اليوم- البدائل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لمجتمعاتنا. وانتاج هذه البدائل هو ما تتجنبه معظم الحركات الإسلامية السياسية المتكاثرة هذه الأيام على صعيد القرية والشارع، كما على صعيد البلاد والأوطان.

توخياً لأن يكون مجلسنا مباركاً، وحتى يكون اجتماعنا مؤثراً أدعو كل من يسمع إلى تعميد حبّ الحسين بمعرفة الحسين. اي الانتقال من الحالة الوجدانية إلى المعرفة الذهنية ثمّ إلى السلوك المؤثر في الآخرين. لقد تراكم على الجوهرة الحسينية قشرة من صدأ الخرافات وعواهل الكلام ورذاذ العواطف. ولأن القبائل والشعوب والأفراد متفاوتون في عواطفهم وانفعالاتهم، بينما هم متفقون في منطقهم وتفكيرهم العقلاني... فإن الرسالة العاقلة والعارفة هي الواصلة، وفقط هي. من لنا بغير الحسين معيناً دافقاً بالحكمة والكرامة والعدالة والحريّة؟ وهذه جميعها مفاهيم سبقتنا إلى تطبيقها بقيّة الأمم، أو أنها مفاهيم رائجة في ثقافاتهم ولغة مفهومة لديهم.

قد يسأل بعض الأخوة الحضور: "مسؤولية مَن الحفاظ على كرامة المنبر الحسيني ورونقه"؟. وجوابي هو: "إنّها مسؤوليتنا جميعاً". حضور المجلس الحسيني ليس واجباً بل هو مسؤولية. وإذا كان متعذراً استخلاص ميثاق مباديء يلزم الخطباء والشيوخ، فإن بين المتلقين أصحاب رأي وحكمة وشجاعة. لو بادرنا إلى مقاطعة الخطباء عند كل انحراف أو شطط، أو لو تعاهدنا على مغادرة المجلس الذي يستفز سليقتنا ... لاتخذت الأمور المسلك السليم !

لتكنْ هذه الذكرى، موعداً لنا جميعاً، نجدده ليجمعنا على خط المحبة والإيمان ضد الظلم والطغيان، موعداً يبشر بفجر جديد يليق بالإنسان. ولنتذكر دائما كلام الإمام المغيب السيد موسى الصدر، إذ يقول " والحسين باستشهاده صان القيم .. وبموته أحياها، وبدمه أبرزها ..."

آجركم الله ورعاكم، وعمّر مجالسكم بالخير والتعقل والحكمة، مع خالص المودة وصادق الدعاء

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.